الفصل الخامس

التَّفْسِيْرُ الأَثَرِيُّ النَّظَرِيُّ
أَشْهَرُ المُفَسِّرِيْنَ بِهِ
وَتَعْرِيْفٌ بِتَفَاسِيْرِهِمْ

المبحث الأول

أشهر التفاسير بالمنهج الأثري النظري

مفهوم (التفسير الأثري النظري):

التفسير الأثري النظري هو التفسير الذي يجمع بين جانبين:

الأول: جانب التفسير بالمأثور، القائم على الرواية والنقل، وإيراد الأقوال المأثورة فقط، دون نظرٍ أو تحليلٍ أو تأويل.

الثاني: جانب التفسير بالرأي، القائم على النظر والاجتهاد، والتحليل والتأويل، دون ذكر للمأثور.

هناك تفاسير اكتفت بإيراد الأقوال المأثورة، المتمثلة في الأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم، ولا يكاد المفسِّر يذكر شيئاً من التوجيه والتحليل، وإن ذكر كان ذلك قليلاً، لا يكاد يُذكر أمام (الكم الكبير) من الروايات المأثورة التي ملأت تفسيره.

وهذا ملحوظ في التفاسير التي طُبعت، والتي جمعت فيها أقوال واختيارات مفسرين من الصحابة أو التابعين، كتفسير ابن عباس، وتفسير مجاهد، وتفسير قتادة، وتفسير السدي، وتفسير الحسن البصري، وتفسير عبد الرزاق، وتفسير أحمد بن حنبل، وتفسير سفيان الثوري.

ويبدو هذا في تفسير السيوطي (الدر المنثور) الذي تحدثنا عنه قبل قليل.

هذه التفاسير تُصنَّف ضمن التفسير بالمأثور، ولهذا أوردناها ضمن الفصل السابق الذي خصَّصناه للتفسير بالمأثور.

وهناك تفاسير اكتفت بالرأي والنظر والتحليل والتوجيه والاستنباط،

وتوسَّعت في الموضوعات العقلية أو الفقهية أو النحوية أو البلاغية، ولا تكاد ترى في هذه التفاسير العقلية شيئاً من المأثور، وإذا كان فيه شيءٌ منه كان قليلاً لا يكاد يذكر.

يبدو هذا في التفاسير العقلية كتفسير الزمخشري، وتفسير الرازي، وتفسير البيضاوي، وتفسير النسفي، وتفسير أبي السعود، وتفسير القمي النيسابوري. وسنعرِّف بهذه التفاسير في الفصل القادم، الذي سنخصصه للتفسير بالرأي، إن شاء الله!.

والتفسير الأثري النظري هو الذي يجمع بين المنهجين السابقين، وينسِّق بينهما، ويرفض غُلُوَّ كل فريق بمنهجه، وإهمال المنهج الآخر، فلا صاحب المأثور يفسِّر بالرأي، ولا صاحب الرأي يفسِّر بالمأثور!.

أصحاب هذا المنهج ينسِّقون بين المأثور والرأي، فترى في تفاسيرهم أقوالاً مأثورة، من أحاديث وأقوال صحابة وتابعين، وترى فيها نظراً واجتهاداً وتحليلاً وتأويلاً.

وهم في هذا التنسيق يكونون قد جمعوا بين الحُسْنَيَيْن، فأخذوا حسنة التفسير بالمأثور، الذي هو ضروري لفهم القرآن، وأخذوا حسنة التفسير بالرأي والنظر، الذي لا بدَّ منه لتفسير القرآن أيضاً.

ومن أشهر التفاسير التي جمعت بين الأثر والنظر: تفسير يحيى بن سلام البصري، وتفسير بقي بن مخلد الأندلسي، وتفسير ابن عطية الأندلسي، وتفسير ابن الجوزي، وتفسير الواحدي، وتفسير البغوي، وتفسير الشوكاني، وسنعرِّف بأهم هذه التفاسير فيما يلي بعون الله:

أمَّا أشهر تفسيرين قاما على هذا المنهج - تفسير الطبري وتفسير ابن كثير - فسنخصص لكلٍّ منهما مبحثاً في هذا الفصل إن شاء الله.

١ - تفسير يحيى بن سلام البصري:

ذهب كثير من العلماء إلى أن (يحيى بن سلام البصري) هو أول من فسَّر

المبحث الثاني

محمد بن جرير الطبري ومنهجه في التفسير

عرَّفنا في المبحث السابق تعريفاً مجملاً جداً بثمانية من المفسرين، وبثمانية من تفاسيرهم، التي ألَّفوها على قواعد (المنهج الأثري النظري)، أفضل المناهج الموضوعية في تفسير القرآن، كان تعريفنا بالمفسرين الأعلام: يحيى بن سلام البصري، وبقي بن مخلد القرطبي، وعلي بن أحمد الواحدي، والحسين ابن مسعود البغوي، وعبد الحق بن غالب بن عطية، وعبد الرحمن بن علي بن الجوزي، ومحمد بن أحمد القرطبي، ومحمد بن علي الشوكاني.

ووعدنا أن نتحدث حديثاً خاصاً عن إمامين من أئمة التفسير الأثري النظري، وهما: الطبري، وابن كثير.

وسنتحدث في هذا المبحث إن شاء الله عن الطبري ومنهجه في التفسير، وفي المبحث القادم عن ابن كثير ومنهجه في التفسير إن شاء الله.

محمد بن جرير الطبري إمام المفسرين:

هو الإمام: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، الطبري، الآمُلي، البغدادي.

يُكنَّى بأبي جعفر مع أنه لم يتزوج، ولم يكن له أولاد، لأن الكنية من السنَّة.

وُلد الطبري في مدينة (آمُل) كبرى مدن إقليم (طَبَرِسْتان) سنة ٢٢٤، وتوفي في بغداد سنة ٣١٠هـ، وعاش ستاً وثمانين سنة[1].

---

(١) الإمام الطبري، للدكتور الزحيلي، ص٣٠.

وهو منسوبٌ إلى الإقليم الذي ولد فيه (طبرستان)، وهو بلادٌ واسعةٌ تقع على ساحل بحر قزوين، شمال إيران المعروفة.

تربَّى الطبري في حضن والده، وكان رجلاً صالحاً، فوجَّهه إلى حفظ القرآن والعلم، ورأى والدُه رؤيا فاستبشر بها، وأخبر ابنه بها فكانت حافزاً له على طلب العلم.

قال الطبري: رأى لي أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله ﷺ، ومعي مخلاةٌ مملوءةٌ بالأحجار، وأنا أرمي بين يديه! ولما قصَّ رؤياه على صديقه قال له: إن ابنك إذا كبر نصح في دين الله، وذبَّ عن شريعته، فحرص أبي على معونتي على طلب العلم، وأنا يومئذ صبيٌّ صغير[1].

أقبل الإمام الطبري على العلم، فملأ عليه حياته، منذ طفولته إلى موته، ولذلك لم يتزوج، وهو لم يفعل ذلك عُزوفاً عن السنَّة ـ لأن الزواج سنةُ رسول الله ﷺ ـ وإنما شُغل بالعلم عن الزواج، ولم تطلب نفسه الزوجة، لأنها متوجهة إلى العلم.

وهناك كثيرٌ من العلماء شُغلوا بالعلم عن الزواج، فلم يتزوجوا، ولم تقعد بهم ثمار الزواج من الأولاد والبيوت عن طلب العلم، وألَّفَ الشيخُ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله كتاباً ممتعاً في أخبار هؤلاء، هو (العلماء العزَّاب الذين آثروا العلم على الزواج).

حفظ الطبري القرآن وهو ابنُ سبع سنين، وصلَّى بالناس إماماً وهو ابنُ ثماني سنين، وكتب الحديث وهو ابنُ تسع سنين!.

تلقَّى العلم على علماء بلده آمُل، ثم علماء طبرستان، ثم علماء الري، ثم غادر بلاد فارس إلى العراق لطلب العلم، وقام برحلاتٍ عديدة يطلب فيها العلم، فارتحل إلى البصرة والكوفة وبغداد والشام ومصر، ودرس على العديد من العلماء

---

(١) الإمام الطبري، للدكتور الزحيلي، ص٣١.

في هذه المدن والمناطق، ثم توجَّه إلى بغداد واستقرَّ بها.

انقطع الطبري في بغداد للتعليم والتدريس والتأليف، وصار عالماً من كبار علماء بغداد، وجمع الكثير من العلوم، وبقي يطلبُ العلم بهمَّةٍ وعزيمة ونشاط، حوالي (ثمانين سنة)! لم تفتر عزيمتُه، ولم يخفَّ نشاطه، ولم يجفَّ قلمه، فطلب العلمَ من المهد إلى اللحد.

وقبيل وفاته شرع في تأليف عدَّة كتب، ولكنه توفي قبل إكمالها، كفضائل أبي بكر وعمر وعلي والعباس.

ولما كان في الخامسة والثمانين من عمره أراد تأليف كتاب في القياس، فطلب من تلميذه أبي القاسم جمع كتب القياس، قال أبو القاسم: «كان أبو جعفر قد التمسَ مني أن أجمع له كتب القياس، فجمعتُ له نيِّفاً وثلاثين كتاباً، فبقيتْ عنده مُدَيْدَة، ثم كان من قطْعِه الحديث والتدريس قبل موته بشهور بسبب المرض، فردَّها عليَّ، وفيها علاماتٌ بالخط الأحمر قد علَّم عليها!».

ووصل إنتاج الطبري العلمي إلى حوالي ستين ألف ورقة! وهذا بتوفيق الله له، وفضله عليه![1].

وكان الطبريُّ أسمرَ أقرب إلى الأُدْمَة، نحيف الجسم، واسع العينين، مديدَ القامة، فصيح اللسان، أسود الشعر، وبقي السواد في شعره ولحيته إلى الوفاة!.

وكان يأكل العنب والتين والرطب، ويأكل الزعتر والزيت والخبز، ويشرب حليب الغنم، ويأكل اللحم الأحمر، وكان لا يأكل التمر والعسل والسمسم واللحم السمين، لأنه كان مريضاً في معدته.

وعندما يأكل كان يُسمي الله على كل لقمة، وكان من أظرف الناس أكلاً، ولا يكاد يُسمَع له تنخُّم ولا تبصُّق.

---

(١) الإمام الطبري، ص٣٧ـ٤٥.

ونظَّم الطبري وقته بين التصنيف والتدريس والعبادة والنوم: فكان ينام القيلولة قبيل الظهر، ثم يصلِّي الظهر، ثم يشتغل بالتصنيف إلى العصر، ثم يخرج لصلاة العصر، ويجلس للناس في المسجد إلى صلاة المغرب، ثم يُدرِّس الناس إلى صلاة العشاء، ويعود بعد العشاء إلى منزله، ويشتغل بالتصنيف، ولا يسمح لأحد بالدخول عليه إلا لأمرٍ هام.

قال عنه تلميذه ابن كامل: قسَّم الطبري ليله ونهاره في مصلحة نفسه ودينه وعلمه والناس!.

وكان الطبري ورعاً عابداً زاهداً في الدنيا، متحرِّياً للحلال، مبتعداً عن الحرام.

قال عنه عبد العزيز الطبري: كان فيه من الزهد والورع والخشوع والأمانة وتصفية الأعمال وصدق النية، وكان عازفاً عن الدنيا، تاركاً لها ولأهلها، يرفع نفسه عن التماسها.

وكان يرضى بما قسمه الله له من الدنيا، ويكتفي منها بالقليل القليل، ويمتنع عن قبول عطايا الملوك والحكام والوزراء.

ألَّف كتاب (الخفيف) في الفقه، فأرسل له الوزير العباس بن الحسن ألف دينار جائزة، فردَّها ولم يأخذها!.

وألَّف كتاباً في أحكام الوقف، فاستدعاه الخليفة المقتدر، وأراد أن يكافئه على كتابه، وعرض عليه آلاف الدنانير فلم يقبلها! فقال له: سلْ حاجتك! فقال الطبري: لا حاجة لي! فقال له الخليفة: لابدَّ أن تسأل شيئاً! فقال الطبري: أرجو أن تكلِّف الشرطة أن يمنعوا المتسولين من الوقوف على أبواب المساجد يوم الجمعة، لأن هذا يسيء إلى أمة محمدٍ ﷺ!.

وكان الطبري عفيف اللسان، لم يغتب أحداً، ولم يشتم أحداً، ولم ينتقص عالماً خالَفه.